الدرس الثاني والثلاثون :

ثلاث شهادات

روى الإمام أحمد في مسنده ، عن زيد بن أرقم قال : كان نبيُّ الله ﷺ يقول : في دُبر صلاته : « **اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيدٌ أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك ، ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أنَّ العباد كلهم إخوة ، اللهم ربنا ورب كل شيء ، اجعلني مُخلصًا لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة ، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب ، الله الأكبر الأكبر ، الله نور السماوات والأرض ، الله الأكبر الأكبر ، حسبي الله ونعم الوكيل ، الله الأكبر الأكبر** »[1].

بهذا الدعاء القويِّ كان ينادي رسول الله ﷺ ، ربه بعد كل صلاة ، يُناجيه بهذه الأمور الثلاثة ، يُشهد الله تعالى عليها . . .

التوحيد جوهر الأديان الربانية :

الأول : الشهادة لله تعالى بالوحدانَّية ، « أنا شهيدٌ أنك الله وحدك لا شريك لك »، التوحيد هو جوهر الإسلام وروحه ، بل هو جوهر الأديان كلها ، كل الأديان ، كل الكتب التي نُزِّلت ، كل الأنبياء التي أُرسلت إنما جاءت لتُخرج الناس من الوثنية إلى التوحيد ، جاء الجميع ينادون هذا النداء : ﴿ **يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الأعراف:٥٩).

---

(١) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، كلاهما في الزكاة ، والدارقطني في السنن كتاب زكاة الفطر (١٣٨/٢)، وقال عن رواته : ليس فيهم مجروح ، والحاكم في الزكاة (٤٠٩/١) ، وصحَّحه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، عن ابن عباس ، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٢٠).

OBEIKAN.COM

ضلال الإنسانية عن التوحيد :

إنَّ الإنسانية قد ضلَّت الطريق ، فعبدت مع الله آلهةً أخرى ، منهم مَن عبد الشمس والقمر ، ومنهم مَن عبد الجنَّ والبشر ، ومنهم مَن عبد الوثن والحجر ، ومنهم مَن عبد النبت والشجر ، ومنهم مَن عبد العنز والبقر ، ومنهم مَن عبد أشياء كثيرة ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى لم يَدَعهم في هذا التِّيه ، لم يَدَعهم في هذا الظلام الدامس ، بل أرسل إليهم رسلاً ، ليُخرجهم إلى نور التوحيد ، من ظلام الشرك والوثنية ، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده .

هكذا كان الأنبياء جميعًا ، وهكذا كان آخرهم محمد ﷺ ، جاء بالتوحيد الخالص ، جاء يُحرِّر الناس من كل شائبة للوثنية ، جاء يدعو الناس إلى (لا إله إلا الله) ، ليس هناك آلهة مع الله ، ولا دون الله ، لا بشر ولا حجر ، ولا شيء في الأرض ولا شيء في السماء ، كان يختم رسائله إلى قيصر ، وإلى النجاشي ، وإلى غيره من أهل الكتاب بهذه الآية : ﴿ **تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ (آل عمران:٦٤)، ليس هناك بشر ربٌّ لبشر ، إنما الكل عبيد لرب واحد ، عبيد لرب السماوات والأرض ، وخالق الكون ، ومُدبِّر الأمر كله .

هذا المبدأ الأول الذي يُنادي به رسول الله ﷺ ربه (التوحيد) : «أنا شهيد أنك الله وحدك ، لا شريك لك» .

محمد عبد الله ورسوله :

والمبدأ الثاني : أنا شهيد أنَّ محمدًا عبدك ورسولك ، لقد ضلَّ الناس في معرفة حقائق الأنبياء ، فمنهم مَن أضْفى عليهم صفة من صفات الألوهية ، ومنهم مَن اعتقد الأنبياء آلهة ، ومنهم مَن اعتقد أنهم أبناء الآلهة ، ومنهم مَن اعتقد أنهم شركاء الله عز وجل ، ولكن النبي ﷺ ، جاء ليُعلن في كتابه أن الأنبياء بشر مثلنا ، ﴿ **قُلْ**

OBEIKAN.COM

﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف: ١١٠) . ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ١١) .

لا يمتاز الرسول إلا بالوحي إليه ، ومضمون هذا الوحي هو (التوحيد) ، فليس الرسول إلـهًا ، ولا ابن إله ، ولا نصف إله ، ولا ثُلث إله ، ولا شيئًا حلَّ فيه رُوح الإله ، إنما هو عبد من عبيد الله ، ومن هنا كان يقول في دُبُرِ كلِّ صلاة هذه الشهادة : « أنَّ محمدًا عبدك ورسولك » . وكان يُعلِّمنا أن نقول في التشهد : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله »[1] ، ويقول مُحذِّرًا : « لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[2] .

هذا ما كان يحرص عليه النبيُّ ﷺ ، ولهذا كان يُحارب كل غلوٍّ في شخصه ، جاء بعض الناس يقولون : يا محمد يا خيرنا وابن خيرنا يا سيدنا وابن سيدنا ، فقال : « قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان ، محمد عبد الله ورسوله »[3] .

وجاء مَن دخل عليه فارتعد ، فقال له : « هوِّن عليك ، فلستُ بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة »[4]

هكذا كان يحرص ﷺ على أن يُظهر عبوديته لله ، وأنه مجرَّد رسول مُبلِّغ عن الله عز وجل . . . « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك » .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأذان (٨٣١) ، ومسلم في الصلاة (٤٠٢) ، كما رواه أحمد (٣٦٢٢) ، وأبو داود (٩٦٨) ، والترمذي (٢٨٩) ، كلاهما في الصلاة ، والنسائي في الافتتاح (١١٧٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٩٩) ، عن ابن مسعود .

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٤٥) ، وأحمد (١٥٤) ، عن عمر .

(٣) رواه أحمد (١٣٥٩٦) ، وقال محققوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٤٨٧١) ، عن أنس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩٧) .

(٤) رواه ابن ماجه في الأطعمة (٣٣١٢) ، والحاكم في التفسير (٤٦٦/٢) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، عن أبي مسعود ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦٧٧) .

البشر كلهم إخوة :

ثم يأتي الجزء الثالث من هذا الدعاء الجليل : «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة» . أخوة لأن أباهم واحد ، وأمهم واحدة ، وقبل ذلك : لأنَّ ربهم واحد . . . ولهذا قال : «أنَّ العباد كلهم عباد الله» ، فكلهم أخوة في ذات الله .

إن هذا الحديث الجليل ، ليدلُّنا أوضح الأدلة ، على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام .

إن هذا الدعاء . . . نرى فيه دلائل على قيمة الإخاء في هذه الرسالة :

دعائم الأخوة الإنسانية في الإسلام :

هو أولاً : يُعلن الأخوة بين عباد الله . . . كلُّ عباد الله ، لا بين العرب وحدهم ، ولا بين المسلمين وحدهم ، مُشيراً إلى الجامع المُشترك بينهم ، المُوحِّد بين أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم ، وهو العبودَّية لله تعالى ، «أن العباد كلهم أخوة» .

وهو ثانيًا : يُقرِّر ﷺ ذلك في صيغة دعاء يُناجي به ربه ، ويشهد بنفسه أمام الله سبحانه على أحقِّية هذا المبدأ وصدقه . . . أي إن تقرير هذا المبدأ ليس مجرَّد كلام أو دعوى للاستهلاك المحلي ، أو للتضليل العالمي ، وإنما هي حقيقة دينية ، لا ريب فيها ولا جدال فيها .

وهو ثالثًا : أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام ، والذي لا يدخل أحد في هذا الدين إلا آمن بهما ، وشهد بهما ، وهما توحيد الله ، ورسالة عبده محمد ، وهذا الاقتران دليل على أهمية هذا المبدأ لدى رسول الإسلام ، كما أنَّ لهذا الاقتران أهمية أخرى في تأكيد هذا الإخاء ، فإن توحيد الله تعالى ، معناه إسقاط كافة المُتألهين في الأرض ، المُتعالين على غيرهم من عباد الله ، وهذا أول ما يُعمق أساس الأخوة بين الخلق .

OBEIKAN.COM

ثم رابعًا : لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر ، مرة كل عام ، أو حتى في كل شهر ، أو كل أسبوع ، بل يدلُّ هذا الحديث أنه كان يُكرِّر ذلك في كل يوم ، وعقب كل صلاة ، أي خمس مرات في اليوم والليلة ، وهذا دليلٌ على مزيد العناية والاهتمام .

ثم خامسًا : جعله ذلك من الأذكار والأدعية التي يُتعبَّد بها ، ويُتقرَّب إلى الله تعالى بتكرارها ، وربطه بالصلاة وختامها ، وهذا يُضْفي عليه قدسيَّة ومنزلة في قلوب المؤمنين ، لا تعدلها منزلة مبدأ يُقرَّر بعيدا عن الله وعن هدي الله .

المسجد يثبِّت معاني الأخوة :

هذا هو الإخاء في الإسلام ، إخاء دعا إليه وأكَّده رسول الله ﷺ ، وثبَّته في مسجده .

المسجد الذي كان يضمُّ أجناسًا من الناس ، منهم الرومي كصهيب ، والفارسي كسلمان ، والحبشي كبلال . ضمَّ العرب عدنانيين وقحطانيين ، ضمَّ مَن كانت بينهم الحروب والثارات كالأوس والخزرج ، ضمَّهم المسجد في رحابه الفيحاء ، ضمَّتهم أخوة الإسلام ، فشعروا بروح هذه الآية الكريمة : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ (الحجرات: ١٠)

ورُوح هذا الحديث وإن كان ضعيفًا : « أنَّ العباد كلهم إخوة » ، وروح الحديث الآخر المتفق عليه : « وكونوا عباد الله إخوانا »[١] .

هذا هو إخاء الإسلام ، الذي هو إخاء بشري عام ، يُؤكِّد الأخوة في العقيدة « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »[٢] .

فاللهم ارزقنا حسن الأخوّة فيك ، إنك سميع قريب .

* * *

---

(١) متفق عليه : عن أنس ، وقد سبق تخريجه صـ ٢٢٠ .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠) ، وأحمد في المسند (٥٦٤٦)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٦)، عن ابن عمر .